العابد المستعين

حلقة الاتّصال:

قال رسول الله ﷺ: **«إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»**.

وجاء في الفصل السابق أن قوله تعالى في سورة الفاتحة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قد قسمت الناس إلى أربعة أصناف: الصنف الأول: العابد المستعين، الذي يعبد الله ويستعين به، وهذا العابد هو موضوع هذا الفصل.

لنتأمل هذه الآية من جديد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نتقدم إليك بالعبادة التي خلقتنا لأجلها، وأمرتنا بها على لسان أنبيائك أجمعين وقدوتنا فيها نبينا المصطفى ﷺ.

إياك نعبد يا رب فترفع الملائكة عبادتنا إليك، والعابد يطيع الله فيما أمره في كل أمر من أمور حياته حتى يرتفع عمله إلى الله عز وجل فـ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10].

و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأنك أنت سبحانك مصدر كل عون، تعيننا على عبادتك فتيسرها لنا، وتقدِّرنا عليها، وتعيننا

على طاعتك فتبعدنا عن المعاصي وتبعد دعاتها وكل ما يؤدي إليها من قول أو فعل.

وهكذا تكتمل الدائرة وتنعقد حلقة الاتصال ترفع عبادة العبد لله وتنزل المعونة من الله إلى العبد.

لكن أيها السابق، العبادة أم المعونة؟

الإشارة القرآنية واضحة فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أولاً ثم يليها ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالعون الإلهي للعبد يأتي بعد العبادة، فلا تطلب المعونة قبل العبادة. أسمع بعض الناس يقولون: «**لا أدري لماذا تخلى الله عني، أدعو فلا يستجاب لي، وأرجو فلا أعان**» يسأل وكأنه لا يعرف السبب، ولو نظر إلى نفسه بصدق لوجد أنه يطلب النتيجة دون أن يقدم الأسباب، يسأل عن السهم النازل إليه بالمعونة ويلح دون أن يؤدي سهمه الصاعد بالعبادة والطاعة؛ فهو يستعين بالله لكن دون أن يعبده؛ ويظن بعد ذلك أن أحواله يجب أن تتغير وتتحسن وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11] وقد قال ابن القيم في شرحها: «**إن الله لا يغير ما بقوم من نعمة حتى يغيروا ما بقلوبهم من الإيمان**» والإيمان قول وعمل فإن تغير في القلوب تغيرت النعم على وجه الأرض.

انظروا إلى حال الناس والبلاد في أيامنا، ثم انظروا إلى الأرض وما يحدث فيها تجدون الجواب واضحاً والحال يعبر عن

المقام فقد ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: 41] وقد قال رسول الله ﷺ: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**» فإذا حافظ العبد على العبادة والطاعة حفَّه الله سبحانه وتعالى بالرحمة والمغفرة والنصرة والمساعدة والمعونة، ورزقه من حيث لم يحتسب، وجعل له من كل ضيق فرجاً ومن كل أمر مخرجاً.

مفاهيم السعادة:

لقد حاول علماء أهل الدنيا تعريف السعادة فتناقضت أقوالهم وتضاربت، فكلهم فلاسفة وكل واحد منهم قد أخذ بمنهج مختلف؛ فقال بعضهم: السعادة هي الحب، وقال آخرون: السعادة هي الوفاء وقال غيرهم المودة، المروءة إلخ... وكلهم على خطأ فما ذكروه ليس إلا أعراض السعادة أما حقيقة السعادة فهي: «**ألاّ تخاف ولا تحزن**» فالخائف لا يمكن أن يكون سعيداً، فالسعيد آمن مطمئن في سربه وهذا خائف مضطرب. والحزين لا يمكن أن يكون سعيداً، لأن الحزن لا يكون إلا على شيء يفتقده الإنسان، أو شيء يرجوه وقد حرم منه؛ أو أمر وعد به ثم أخلف الواعد بوعده. أما من عَبَد الله واستعان بالله وتوكل على الله فقد امتلأ قلبه بالأمن واليقين، والآمن لا يخاف من شيء فكل شيء بقدر، والمتيقن لا يعذبه الشك فهو في راحة ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: 62]، وانظر إلى قول الله تعالى لأم موسى عليه السلام عندما أمرت أن تلقي بفلذة كبدها في اليم ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7].

وقوله للسيدة مريم عندما خافت من قومها: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: 26] وموسى عليه السلام ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: 62] عندما خاف قومه من لحاق فرعون وجنده بهم أما هو فقد كان مطمئن القلب.

والحبيب المصطفى وهو في الغار بعد أن خرج من مكة يريد الهجرة إلى المدينة، وخرج المشركون خلفه يريدون قتله ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40].

إن الإنسان يعيش بين خوفين، خوف مما مضى لا يدري ما الله قاضٍ فيه وأجل قد أتى لا يدري ما الله صانع به، هو يخشى من الماضي ألا ينتقض عليه وصيبه منه ما كان يحاذر، هو يخشى أن تنكشف غدراته وسوءاته الماضية، ويخشى من الآتي، لا يعرف ماذا سيفعل فيه، أمَّا المؤمن فقد أسلم أمره وقياده إلى الله تعالى؛ فهو لا يخاف مما قد يصيبه لأنه يعلم أنه قد أطاع الله ولا يخذل الله عبداً طائعاً ولا يحزن لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه. والله سبحانه وتعالى قد حفظ من كان قبلنا من الخوف والحزن، قال تعالى ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾

﴿إِلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤﴾ [قريش 1 – 4]

وما دمنا من العابدين الطائعين مهما ضاقت الأيام؛ واسمع لقول الإمام الشافعي رحمه الله:

دع المقادير تجري في أعنتها
ولا تبيتن إلا خالي البال
ما بين طرفة عين وانتباهتها
يغير الله من حال إلى حال

واسمع لقول السيدة سكينة رضي الله عنها وأرضاها:

إن رباً كفاك بالأمس ما قد كان
سيكفيك في غدٍ ما قد يكون

ولماذا نخاف؟ اسمع قول الجيلاني رحمه الله:

تجري الأمور لأسباب لها عِلَلٌ
لا تعجبنَّ فإنَّ الصانع الله
يا صاحب الهم إن الهمَّ منفرجٌ
أبشِرْ بِخَيْرٍ فإنَّ الفارجَ الله

ولا بد أن تعلم أن معونة الله لك ستترتب على عبادتك أنت لله وهذه المعونة هي الأمل الوحيد لك للخلاص من التعاسة

وأسبابها ولكي تكون في السعداء، وأسعد الناس هم هؤلاء الذين أسعدتهم عبادتهم لله عز وجل، فهم لا يألمون عندما يتألم الناس ولا يخافون إذا خاف الناس.

الخوف على الدنيا وطلب الآخرة:

ولماذا يخافون والناس إنما يخافون على الدنيا وهم يطلبون الآخرة وأعينهم قد تورمت من البكاء من خشية ربهم وهم يعفِّرون وجوههم في الأرض رهبة ورغبة، لا يخافون إلا الله ولا يرجون سواه؛ لا ينحنون لغيره، لا يقفون بغير أعتابه، لا يتوسلون إلا به، ولا يستعينون إلا بذاته، ولا يستعطفون إلا قدرته.

قلوب الناس تمتلىء بالطمع وأعينهم بالرغبات أما هم فقد امتلأت قلوبهم نوراً وأعينهم نوراً وآذانهم نوراً ولهجت ألسنتهم بذكر الله وارتجفت قلوبهم عندما سمعت ذكره، يبتسمون إذا تذكروا الجنة وما أعد الله فيها للمتقين ويبتهجون شوقاً إذا تذكروا حبيبهم ونبيهم المصطفى ﷺ؛ لذلك تراهم في حالة دائمة من الخشوع، ينظرون إلى الدنيا نظر الكاره المفارق، وإلى الآخرة نظر المشتاق المحب.

لقد خرجت الدنيا من قلوبهم فلم تتمسك بها أيديهم، ودخلت الآخرة إلى قلوبهم فامتلأت بها عقولهم وتفكرت بها ذواتهم وعملت لها جوارحهم فكلامهم دعاء وأعينهم بكاء

وأيديهم أكف رجاء لا يطمعون إلا فيما عند الله، هم رهبان الليل يقومونه طاعة وحبّاً بالله، وبالنهار يكدُّون ويكدحون طلباً لرزقهم ورزق عيالهم. فرسان طاعة يسعون للحلال من الرزق ويفرون من الحرام فرار المرء من المجذوم والسبع العادي.

هم رهبان الليل لا يتركون خيراً إلا سعوا إليه، ولا يرون شرّاً إلا ابتعدوا عنه وفارقوه، ولا يتركون منكراً إلا نهوا عنه ولا خيراً إلا دعوا إليه.

هم يسعون إلى ذي الحاجة ليقضوا حاجته ويسعون إلى الفاسد ليقوِّموه فإن لم يقدروا قاوموه، يديرون ظهورهم للمنكر ويقبلون على مجالس الذكر وقد امتلأت قلوبهم بحب الله فلا مكان فيه لسواه؛ ولا يكرهون إلا من جاهر بالكفر ومحاربة الله عز وجل.

تحركت ألسنتهم بالقرآن فلا يتلفظون بما يشين، وتحركت جوارحهم بالصلاة فلا تسير أرجلهم إلى معصية ولا تبطش أيديهم رجاء نيل ما حرَّم الله، وتحركت قلوبهم بالإيمان فابتعدت عنها الشهوات والرغبات المحرَّمة، واسْتغنوا عن الدنيا بالآخرة فصاروا هم السعداء حقّاً لا مزية لأحد عليهم ولا فضل لأحد بعد الله عليهم، وقد وصفهم ربهم فقال عز وجل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8].

العبودية لله وحده:

في زمن العبودية والرقيق وبيع الإنسان للإنسان كان العبد يسعى ويشقى لصالح سيده، فالعبد يزرع ويحصد والسيد يأكل مرتاحاً، العبد يعمل ويجمع المال والسيد يتمتع به، لكنك عندما تكون عبداً لله فسيدك لا يطلب منك أن تطعمه أو تكسوه أو تساعده بل هو يطعمك ويسقيك، وهو يشفيك ويكسوك ويساعدك ويرزقك من حيث تحتسب ومن حيث لا تحتسب؛ فهل تترك عبوديتك لهذا السيد الذي خيره نازل إليك ورحمته وفضله.

حقيقة العبودية:

إن العبودية لله نور وبر وإحسان، مجد وفخر، ولذلك قال الشاعر:

ومـمَّـا زادنـي شـرفـاً وتـيـهـاً
وكـدت بـأخـمـصـي أطـأ الـثـريَّـا
دخـولـي تـحـت قـولـك يـا عـبـادي
وأن صـيَّـرت أحـمـد لـي نـبـيّـا

في زمن الرق والعبودية كان عبد الحاكم حاكماً يخشاه الناس ويتقربون إليه لأن كلمته مسموعة عند سيده، وعبد التاجر تاجراً يعمل في مال سيده ويسعى صغار التجار والباعة لنيل

رضاه، وهم الأحرار وهو العبد، والناس تخشى أذاه لأنهم لو آذوه لكان معنى ذلك أنهم يتعدون على سيده ويتطاولون عليه، فكيف تتعامل مع عبدٍ سيده هو الله تعالى الذي لا قدرة لأحد على احتمال غضبه وعقابه ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: 257] والمولى هو السيد الذي يحمي عبده ممن يمكن أن يصل إليه أو يبطش به أو يتحرش به ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: 68].

العباد في القرآن الكريم:

إن كلمة «عبادي» لم تذكر في القرآن الكريم إلا وهي تمدح الموصوف لها وتبشره بالرحمة والمغفرة ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: 49، 50] وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: 53] وقال في سورة الفجر ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: 27 – 30].

إن أرقى كلمة يمكن أن يوصف بها إنسان أو أن يتصورها العقل هي أن تكون ممن وصفهم الله بأنهم عباده، فقد وصف بها

الأنبياء والأولياء، فالناس درجات فأعلاهم درجة هم المسلمون وأعلى المسلمين درجة المؤمنون، وأعلى المؤمنين درجة الأنبياء، واختار سبحانه وتعالى من الأنبياء والرسل خمسة هم أولو العزم، ومن أولي العزم اختار أعلى واحدٍ فيهم درجة عنده هو المصطفى، سيد ولد آدم وقد وصفه بأنه عبد، فقال عز وجل: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: 1] وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: 1] وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: 23]؛ وعندما يوصف الأنبياء بأنهم عباد الله فهذا يعني أن العبودية لله درجة تشريف، فأنت بذلك تكون في حمى الله وحفظه، فقد قال تعالى في سورة النمل: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النحل: 59] ومن شمله سلام الله لا يخشى من مخلوق كائناً من كان؛ فالعبودية لله درجة ما بعدها درجة من الحب والرحمة والمغفرة والكرم.

والعبودية مشتقة من عَبَّد، وعبدت الطريق يعني مهدته فصار ممهداً صالحاً للسير، والطاعات تعبد النفس وتمهدها وتجعلها صالحة للقرب إلى الله والسعي لما فيه رضاه ولذلك فعندما تقول: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ تكون قد مهدت نفسك بالإخلاص لله ودربتها على الانصياع فاستحقت المعونة من الله؛ ولما كان الإنسان عبداً لله فإن الله قد يسر له كل شيء وخلق له

أفعاله ولذلك قال تعالى للنبيِّ ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17] وعندما اهتدى الناس على يديه، قال له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: 56] وعندما علَّم الناس قال له: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]، وعندما ألَّف بين الأوس والخزرج بعد الحروب التي كانت بينهم، قال له: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: 63] وحتى لينك ورحمتك للناس فهي من الله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

في غار حراء:

كان الصِّديق رضي الله عنه قاعداً قرب النبي ﷺ في الغار وهو يقول له: «يا رسول الله، لو نظروا تحت أقدامهم لرأونا» أي لو نظر الكفار إلى مواقع أقدامهم لرأوا أقدام رسول الله ﷺ والصديق قرب باب الغار، فماذا قال الرسول ﷺ له: **«يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما»** وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40] فماذا كانت النتيجة بعد قول الرسول ﷺ ذلك لأبي بكر رضي الله عنه ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ليس هذا فقط بل ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ

هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: 40] إذن فالمدد من الله مرتبط بكمال التسليم لله والاستعانة به وحده سبحانه وهو سيسبب لك الأسباب التي تأتيك بمعونة منه سبحانه؛ دون أن تقدر أنت على تفسيرها.

كان سيدنا زكريا عليه السلام يرى السيدة مريم وهي صغيرة لأن أمها نذرتها للخدمة في المعبد، وكان هو زوج خالتها، فكان ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37] فمن سلَّم أموره كلها لله، لم يحمل هم طعام أو شراب أو خوف أو مرض ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3] فمن يتوكل على الله لا يحتاج لمساعدة من غيره.

التأمين الإلهي:

يقول أحدهم: أخاف على أطفالي أو أولادي من بعدي، فيسعى ليعقد لهم وثيقة تأمين، وبعد وفاته قد تتهرب الشركة من الدفع أو تخترع الأسباب للمماطلة، وقد تفلس قبل ذلك، أو يعجز هو عن إتمام الأقساط فتسقط الوثيقة قبل استحقاقها، لكن هناك وثيقة تأمين لا يسقطها شيء ولا يعطلها شيء، إنها وثيقة التأمين الإلهية مع الاشتراك في الحسنات، هذه الوثيقة هي ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء: 9]، فمن كان

يخاف على أولاده فليلتزم بالعبودية مع الله فربنا يلتزم معه بالمعونة؛ كما جاء في الحديث القدسي: «**عبدي أطعني يطعك كل شيء، عبدي أَنفِق أُنفِق عليك، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك**» فلذلك إذا تركت لأولادك عملك الصالح وإيمانك بالله تبارك وتعالى وعبوديتك لله؛ فإن كان أحد الوالدين فقط صالحاً حفظ الله أولاده لصلاحه، فامرأة عمران كانت صالحة ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى نبيّاً يتكفل ابنتها مريم ويربيها ويعلمها ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: 35 - 37]؛ وفي القرآن كذلك قصة رجل صالح ترك بعده غلامين يتيمين فيسر الله لهما نبيين ليصلحا لهما جدارهما هما موسى والخضر، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: 82].

فضائل العبودية لله:

كلما قرأنا قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ ازددنا قرباً منها، وكلما ازددنا قرباً منها زدنا

حبّاً فيها وتعمقاً فوجدنا ينابيع الفخر والمجد والحب والخيرات والنفحات والمدد من الله تعالى، وعندما يتحقق كمال العبودية لله ينال العبد كل ما يحتاجه دون طلب منه ولذلك قال تعالى: ﴿سَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 137] والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ﴾ [الزمر: 36] أي أن الله وحده هو من يكفي عبده فهل نطلب الكفاية من غيره؟ أما الذين آمنوا ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ وأرادوا بذلك تخويفهم وإرهابهم فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَزَادَهُمْ﴾ تخويف الناس لهم ﴿إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173] فالعبد إذا أحسن عبوديته لله تبارك وتعالى زاده إيماناً ونصره ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7] وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ ۚ﴾ [الحج: 40] وهذا وعد بالنصر من الله ولا يخلف الله وعده.

لو أنك طلبت من موظف لديك عملاً معيناً مما هو مستخدم لأجله فعصاك ولم يقم بالعمل، أو طلبت من ابنك أن يذهب إلى مكان معين ليشتري لك شيئاً فعصاك، هل ستحتمل ذلك؟ وكيف سيكون رد فعلك؟ ألا تطرد الموظف من عمله، وتقطع المصروف عن ولدك لأنه عصاك؟

والله سبحانه وتعالى قد أمرك بالصلاة والصيام والزكاة والحج والخير إلخ فلا تفعل شيئاً من ذلك.

الله هو الذي يأمرك، الخالق الذي خلقك فسواك فعدلك، والذي يرزقك ويطعمك ويسقيك ثم تبارزه بالمعصية؟ جاء في الحديث القدسي قوله تعالى: «**عبادي يبارزوني بالمعصية وأنا أكلأهم على فرشهم إني والجن والإنس في نبإ عظيم أَخْلُقُ ويعبد غيري أرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل وشرهم إليَّ صاعد، أتقرب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم فيتباغضون إليَّ بالمعاصي وهم أحوج ما يكونون لرحمتي، يا عبادي من دنا مني تلقيته من قريب ومن نأى عني ناديته من بعيد ومن طلب رضاي أجبته لما يريد ومن شكر نعمائي أعطيته فوق المزيد ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد**». إيَّاك أن تظن أنك بمجرد أن صليت الفرائض أو تطوعت بركعتين وصُمْتَ شهر رمضان وأديت ما عليك من زكاة وحج أنك قد استكملت العبودية لله فكل هذا صور تدريب على العبودية.

كمال العبودية:

لو كنت موظفاً عند رب عمل في التاسعة صباحاً إلى التاسعة مساءً مثلاً فهل تقدر على عصيان أمر من أوامره في هذا الوقت؟ إنك لو فعلت ذلك طردك من العمل، ولو كنت عبداً رقيقاً عند إنسان مثلك فهل تجرؤ على التلكؤ أو العصيان؟ إنك لو فعلت لباعك لأسوأ الناس معاملة عقاباً لك على عصيانك؛ وعبوديتنا لله هي منذ أن نبلغ الحلم حتى يتوفَّانا الله، وإبليس

الذي ظن أن عبوديته تسمح له بالعصيان وقع في الخطأ فاستحق الطرد من رحمة الله عندما رفض أمر الله له بالسجود سجود تكريم لآدم عليه السلام.

وأنت وأنا، وكل واحد منا عبدٌ لله وليس له اختيار في معصية الله لأن الذي يأمره هو سيده الذي يريد منه أن يكون عبداً مطيعاً وله في المقابل السيادة الكاملة في الدنيا والآخرة فقد ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فالذي يعد هو الله لا يخلف الميعاد، والموعود هو المؤمن، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾، لكن ما هو الثمن الذي علينا أن ندفعه لنستحق هذا الكرم الإلهي ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: 55].

إذن فليس المطلوب فقط القيام بالطاعات، بل ترك المعاصي أيضاً، فلو فرضنا أن أحدنا قام بكل الفرائض لكنه لم يرتدع عن المعاصي فهل يكون قد حقق بذلك معنى العبودية؟

لكي تحقق معنى العبودية يجب أن تكون عبوديتك خالصة لله وحده، ولنتذكر معاً قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: 7]، إذ فثمة ثلاثة أمور يجب أن نبتعد عنها لنحقق معنى العبودية وهي الكفر والفسوق والعصيان. أمَّا الكفر فقد

تحدثنا عنه في صفحاتٍ سابقة فما هو الفسوق وما الفرق بينه وبين العصيان؟.

الفسق أو الفسوق هو فعل ما نهى الله عنه، والعصيان هو ترك ما أمر الله به؛ فالله سبحانه وتعالى قد حرَّم شرب الخمر، فمن شربها كان فاسقاً، والله قد أمرنا بالصلاة فمن ترك أداءها كان عاصياً، ولتكون عبداً خالصاً لله عليك إذن أن تترك الكفر والفسوق والعصيان؛ وإلا فكيف نزعم محبتنا له، ومن فعل ذلك كان كما قال الشاعر:

تزعم محبته ثم تعصاه
هذا لعمري في الكائنات شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته
إن المحب لمن يحبُّ مطيع

فالحب يحتاج إلى إثبات، والإثبات لا يكون بمجرد أداء الطاعات فلا بد من ترك المعاصي؛ فمن لم تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له، وإلا فما معنى أن يصلي الإنسان ثم ينشر الأذى حوله، ما معنى أن يحج ثم يأكل حقوق العاملين لديه، ما معنى أن يؤدي الزكاة ثم يسرق، ما معنى أن يصوم رمضان ثم يشرب الخمر في أول مناسبة؟ إن القيام بالطاعات لا يكتمل إلا بترك المعاصي، ولا تكتمل العبودية لله إلا بأن نقوم بفرائض هذه العبودية في كل وقت من أوقات حياتنا وأن نقوم

بكل أمر لا نقوم به إلا لله، فلا نتصدق حبّاً بالجاه وكلام الناس بل حبّاً بالله، وأن نعطي كل ذي حق حقَّه، وأن نبتعد عمَّا نهى الله عنه، طاعة لأمر الله، ورغبة في نيل رضاه وأن نحب لله ونبغض لله وأن نتوجه إليه بقلب خالص لمحبته.

كمال العبادة:

إذا وقفت للصلاة فأنت في حضرة الله عز وجل، ويجب أن تكون عبادتك خالصة له؛ ولتخلص عبادتك يجب أن يخلص قلبك وفكرك وعقلك.

لو ذهبنا إلى شركة أو مؤسسة أو دائرة رسمية أثناء وقت العمل، ورأينا أحد الموظفين، قد ترك أمور الناس والعمل وحمل مصحفاً يقرأ منه، فهل نقبل منه ذلك؟ سنقول له: إن هذا الوقت ملك للعمل، فعليك أن تتفرغ فيه لقضاء أمور الناس، ولك بعد انتهاء وقت الدوام ما تشاء من وقت للقراءة.

وعندما نقف للصلاة وقلوبنا مشغولة بأمور الدنيا وعقولنا تتفكر في مشاكل حياتنا اليومية، نتذكر أن فلاناً لم يؤد لنا القرض الذي استدانه، والولد قد تأخر في الحضور من المدرسة، والدكان يحتاج لبضائع جديدة، ورائحة الطعام تملأ أنوفنا ويسيل لها لعابنا، وصور الفاكهة التي رأيناها في دكان بائع الفواكه تقف بيننا وبين القبلة، وما الذي رفع فاتورة الهاتف يا ترى إلخ... فكيف نصلي وكيف نفهم ما نتلو من آيات القرآن؟

كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذا سئل كيف تفعل إذا دخلت إلى الصلاة؟ يقول: «**أنا إذا دخلت الصلاة، أصلي وكأن ملك الموت وراء ظهري وكأن الجنة عن يميني وكأن النار عن شمالي وكأن الصراط منصوب تحت قدمي وكأني واقف أمام عرش الله، فإذا فرغت من الصلاة لا أدري أَقَبِلَهَا الله أم لا**».

أحد الصحابة أصيبت رجله بالآكلة وهي ما نسميها اليوم الغرغرينا، فقضى الأطباء بقطع رجله قبل أن ينتقل التسمم إلى باقي جسمه، أراد الطبيب أن يسقيه الخمر لكي لا يشعر بالألم فلم يكن ثمة بنج في تلك الأيام.

قال الصحابي: لا أفعل ذلك أبداً.

قال الطبيب: وَلِمَ ولا وسيلة سواها لكي نتمكن من إنجاز ذلك دون أن تحس بآلام البتر؟

قال الصحابي: إن الله لم يجعل شفاء الناس فيما حرَّمه عليهم. احتار الطبيب بالأمر فلا بد من البتر وإلا مات الرجل؛ فأخبرت زوجة الصحابي الطبيب ومن معه بأمر عجيب، قالت: اتركوه، فإذا دخل في الصلاة افعلوا به ما شئتم.

أمر لا يصدَّق بسهولة، لكن لم يكن ثمة وسيلة يلجأون إليها، فانتظروا وعندما بدأ الرجل الصلاة جاؤوا بالمناشير وقطعوا رجله وكووا موضع القطع بالزيت المغليّ ثم لفوها وهو يصلي.

عندما انتهى من الصلاة وسلَّم، نظر فرأى ما فعلوا فسأل: متى فعلتم كل هذا؟

قالوا: فعلنا ذلك وأنت تصلي، فكيف لم تشعر بشيء مما فعلنا؟ وانظر عزيزي القارىء إلى جوابه، قال: «كيف أكون مع الله وأشعر بمن سواه؟» سبحان الله هكذا تكون التقوى والطاعة: «كيف أكون مع الله وأشعر بمن سواه؟».

في العهد العباسي، وفي زمن الخليفة المأمون، طلع المعتزلة بفكرة «خلق القرآن» وكان المأمون يميل إلى المعتزلة ويقول قولهم فأراد حمل الناس على هذا القول بالحسنى أو بالقوة فسمى الناس هذه الفتنة «فتنة خلق القرآن» لما سببته من أذى للمسلمين وللعلماء بوجه أخص؛ إذ كي يقبل الناس بهذا القول ويقولوا به يجب أن يقول به علماؤهم الذين يعرفون ويجلُّون، فهم القدوة؛ وعلى رأس هؤلاء العلماء كان الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، فإن أجاب إلى ذلك أجاب غيره مقتدياً به.

جاء المأمون بالإمام أحمد إلى مجلسه ليتناظر مع زعماء المعتزلة فلم يقدروا عليه بالمناظرة، فحاول المأمون أن يستميله إلى ذلك بالحسنى، فعجز عن ذلك، فأمر به أن يجلد أمام تلاميذه في مكان عام عساه يخضع ويخاف تلاميذه عندما يرون ما حل بقدوتهم.

جاؤوا بأضخم جلاد وأقوى سوط لديهم، وعروا الإمام

من ملابسه وهو رجل كبير السن ويبدأ الجلد حتى يغيب الإمام عن الوعي وتلاميذه يبكون من حوله غير قادرين على فعل شيء.

حملوه إلى المنزل فلم يفق إلا في اليوم التالي فكان أول سؤال يسأله: «أصليتم العصر؟» يظن أنه ما زال في نفس اليوم.

قال التلامذة: دعك من هذا الآن فنحن في يوم آخر، لكن أخبرنا فقد كنا نراك تضرب ونحن نبكي من أجلك وأنت مبتسم كأنك لا تحس بشيء. فكيف رد الإمام عليهم؟

قال الإمام أحمد، رحمه الله: «أنتم كنتم ترون يد الجلاد أما أنا فكنت أشعر بيد رب العباد».

هذا هو الانغماس في العبودية إنك عندما تكون مع الله لا تشعر بأحد سواه.

اللهم فَرِّغ قلوبنا لطاعتك واقبلنا في عبادك الصالحين اللهم أفرغ قلوبنا إلا منك ونفوسنا إلا من محبتك وجوارحنا إلاَّ من طاعتك.

اللهم إنا نسألك إيماناً دائماً ويقيناً خالصاً وشفاءً من كل داء ولا تجعل فينا ولا بيننا ولا حولنا شقيّاً أو محروماً إنك سميع قريب مجيب الدعاء.